

رسالة الشباب العربي



ان الشباب العربي على موعد مع المستقبل . فقد القيت على عاتقه تبعة مصير البلاد العربية وتحقيق اهدافها . فما هي العدة التي اعدّها لذلك اليوم حتى يضمن للعروبة مستقبلها وبسير بها في طليعة الأمم ، للمساهمة في التاريخ مساهمة حرة ، ولخلق جزء من حضارة العالم ؟ وان نظرة واحدة الى التاريخ تبين لنا أن العروبة التي ندين بها كانت ولا تزال قادرة على خلق جزء من حضارته . هذه حقيقة معروفة مسلم بها لا يدخلها شك ولا يداخلها جدال . فلننصرف اذًا الى مشاكل حيوية حجبت عن عيوننا منذ ولى العرب وجوههم نحو الماضي وركنوا الى المعيشة في احضانه فاستولى عليهم السبات العميق . وقبل ان ألج هذا الموضوع لا بد لي ان آتي بايجاز على الاسباب الاساسية التي ادت الى تأخر العالم العربي بعد ان حمل نبواس العلم والحضارة طيلة اربعة قرون من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر .

طراً على العقلية العربية في القرون التي تلت العصر العباسي الذهبي عوامل شتى ادت الى تحجرها وآلت من هذا التحجر الى الفشل . واكتمل هذا التحجر بمجيء السلاجقة الذين اكنسحوا

الشرق العربي في القرن الحادي عشر ونشروا سلطانهم عليه . كان
همهم الاول توطيد دعائم ملكهم فأسسوا المدارس النظامية
واوجدوا مناهج للتعليم غايتها تهيئة الرجال لوظائف الدولة .
فتكالب الناس عليها وعلى الوظائف تكالبهم عليها في عهد الانتداب
الغابر . وقد ندد الغزالي بمناهج التعليم هذه وبغايتها المادية النفعية
وبالروح التي احدثتها بين علماء عصره فقال :

« فرأى الناس عز العلماء واقبال الائمة والولاء عليهم مع إغراضهم
عنهم فاشربوا لطلب العلم توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه فأكبوا
على علم الفناوى وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا
الولايات والصلات منهم . ومنهم من حرم ، ومنهم من انجح والمنجح لم يخل
من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين
طالبين وبعد ان كانوا اعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال
عليهم » .

وحاول الغزالي ان يربط مناهج التعليم هذه بفكرة روحية
تبعث الوعي الاخلاقي في الفرد فلم يفلح لكثرة المرتزة بين رجال
العلم . وزاد في الطين بلة تفشي الانتهازية الكلامية بين الفقهاء
وقادة الفكر وطغيان المصلحة الفقهية والرسوم الجدلية على الابحاث
العلمية وتسלט الكلام والمتكلمين على جميع نواحي العلم . فانصرف
العرب عن الجوهر الى العرض وعن الروح الى المادة ، فتم تحجر
العقلية العربية ولم تنحل بعد . وقد غفل العرب في فعلهم هذا
عن حقيقة اساسية في تاريخ الحضارة والعمران وهي ان ايام الشعب
المثمرة المنتجة النافعة تصبح معدودة حالما يقتصر اهتمام افراده على

ما يعود عليهم مباشرة بالشفقة المحسوسة الملموسة . ولم تفشل الحضارة العربية آنئذ لفقدان الذكاء والفتنة والمواهب لدى العرب او لنقصها بل لفقدان الاخلاق الفردية والاجتماعية وفسادها ، وثمة در شوقي القائل :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا
ولم تفسد الاخلاق الفردية والاجتماعية الا لانصراف العرب عن الجوهر الى العرض ، وعن الروح الى المادة .

واليوم تعترض الشباب العربي مشاكل شتى . واذا انصدى للبحث فيها بمنتهى الصراحة لا ابتغي تثبيط العزائم بل استفزازها لاني اؤمن بالشباب العربي واثق به ولأني مقتنع بأنه كفوء لاية تبعه او مسؤولية .

يعيش الشباب العربي اليوم في بيئة تعودت النظر الى الماضي والتغني به دون ان تستفيد من وحي التاريخ شيئاً . وهي أشبه بجندي تجاوز السن فاحيل على التقاعد لا عمل له سوى التحدث عن المعارك الحربية التي خاض غمارها وعرض الاوسمة التي نالها وانتظار لاجل . وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد ، جميع حياته وراءه ، وليس امامه إلا القبر . فعلى الشباب العربي ان يولي وجهه نحو المستقبل وان يعقد النية على ان يكون مستقبل العرب خيراً من ماضيهم . واذا اقتضت الحال أن يخرج على الجيل القديم في بلده فليفعل لأن بركة الاجيال المقبلة خير من بركة الوالدين .

وقد تيسرت للشباب العربي في الآونة الاخيرة فرص عديدة فاستفاد منها الى حد . اتقن مثلاً صناعة الطب ولمع في مهنة المحاماة

وبرز في الهندسة ونال قسطاً وافراً من النجاح في كل ما انتحله وتعاطاه . وليس في هذا مدعاة للعجب لان الشباب العربي يفوق غيره فطنة وذكاء . غير انه لا يزال يتلمس طريقه في الحياة ويظهر في أغلب الاحيان مغلوباً على امره ، مشتت الافكار قلق البال عديم الثقة بنفسه تتضاربه الاهواء والمذاهب الفكرية . ولعدم ثقته بنفسه تراه يهوى المديح ويحفل من النقد الصريح . يدخل معترك الحياة معتقاً مبدأ من المبادئ فلا يلبث ان ينحرف عنه بفعل العوامل المادية . ولعل السبب في ذلك ان لديه جميع صفات الرجولة الا واحدة - تلك التي تعطي الحياة معنى وحقيقة ، فتبديد من حوها غيوم الشك وتزبل من امامها عقبات التذبذب والتردد - تلك الصفة هي متانة الاخلاق وصلابة العقيدة . ولا تتم له الا اذا قامت نصب عينيه قبة فكرية روحية يولي وجهه نحوها فتوحده قوى نفسه وتستحيل بها حيانه من وجود معدوم الغاية والانسجام الى حياة ذات غاية ووثام .

وقد عرف الاعداء موطن الضعف في الشباب العربي فأخذوا يهاجمونه من تلك الناحية وينصبون امامه قبلاً متعددة ادت الى التشويش والتلبيس وكلها دخيلة تنبت من غير ارضه ، وجميعها بعيدة عن ذوقه وميوله متنافية مع نفسه وروحه . فمن شيوعية روسية ، وفاشستية ايطالية ، ونازية المانية ، وديمقراطية انجلوسكسونية كلها تنبع من غير بئر وتجري من غير عينه . وانا مستعد ان ادين بآية فكرة من هذه الفكر وان اعنتق اي مذهب منها ان كانت اصولها نابتة من تربة عربية . وانا لا احجم عن ان ادين بالشيوعية مثلاً ان

كانت من توبة عربية، أو أن أتعلق بأهداب الفاشستية أو النازية ان كانت بذورها عربية، وتبعاً للمبدأ نفسه ارفض الديمقراطية اذا لم تغذ جذورها توبة عربية .

ورب معترض يقول : ما هذا التعصب وما هذه المغالاة؟ وهل تخضع الفكرة لحدود جغرافية وتعرض لتعريفه جمركية و تحتاج الى جواز سفر في ذهابها وايابها؟ كلا، فالفكرة عالمية في اساسها وطبيعتها - لا تعرف حدوداً جغرافية ولا تعترف بها ولا ترضخ لتعريفه جمركية ولا تحتاج الى جواز سفر. غير اننا سنخون الامانة التي وضعت في عنقنا ان قنعنا بالتقليد واكتفينا بعيشة الطفيلية الفكرية، نعيش على الغير فكراً ولا نقدم للعالم شيئاً. وسندخل ترائنا ونغدر به ان رضىنا بالفتات الفكري الذي يتساقط عن موائد غيرنا بعد ان كانت موائدنا مكدة وكؤوسنا ربا. وان ما ينعم به العالم الآن من مثل عليا وآمال مصدرها شرقنا جرت على افواه انبيائه وشفاه رسله. ولا يغربن عن البال ان القدس وبغداد تسطعان في الفلك الفكري بنور يضاها في لمعانه وبهائه نور اثينا ورومة .

ولا بد للانسان في ارتقائه ان يبلغ درجة يرى فيها الحقيقة بعين اليقين، فيدرك عندئذ ان التقليد انتحار، ولا يقدم على الانتحار الا المجنون او البائس. وقد طغت موجة الانتحار الفكري هذا على الادب كما طغت على السياسة. وعندي انها لم تطف على السياسة الا بعد ان طغت على الادب وطمت عليه كما طغت على اكثر نواحي حضارتنا. فنحن ابداء مقلدون وبالنسبة مقبلون على الانتحار. فبيوتنا

مبنية على طراز اجنبي وجدرانها محلاة بزخارف غريبة . وآراؤنا
 واذواقنا ترجع آراء الغير واذواقهم كما يرجع الفار نبيق الحمار .
 فيما انا اعد هذه الكلمة وقد انتابني بعض الضجر بما انا كاتبه
 توقفت عن الكتابة وتناولت لفافة من التبغ لأحجب عني بدخانها
 جيوش اليأس . فوقع نظري على غلاف احدى المجلات الحديثة وقد
 ظهرت على الغاشية منه اعلام الدول العربية بالوانها الاربعة فترجعت
 على صفي الدين الحلي وتناولت المجلة فاذا هي « الكتاب » والعدد
 عددها الممتاز للشهر الاول من شهور السنة . وقد اطلق على
 هذا الشهر اسم « يناير » سامع الله المقلدين . وحسب عاداتي فحصدت
 محتويات « الكتاب » فلفت نظري عنوان هذا نصه : « اتجاه التأليف
 في عام ١٩٤٥ » . فقلت في نفسي وهل هناك مقياس افضل من
 اتجاه التأليف للتحقق من اتجاه التفكير ؟ ففتحت الكتاب الى ان
 وصلت الى الصفحة الثلاثمائة والثانية والتسمين حيث يبتدىء
 المقال . واذ كانت مصر تسير في طليعة البلدان العربية من حيث
 التأليف تتبع سير التأليف واتجاهه هنالك . وهاكم ما وجدت
 من الكتب أنلو عليكم اسماءها وفي هذه الاسماء وصف لها وتعيين .
 « نهر الرين » ، « الولايات المتحدة » ، « روسيا » . ثلاثة كتب في
 في مواضيع غير عربية . « قناة السويس » لشنفلد ، « اميركا »
 لستيفن فنسنت بنيه ، « عصر الخرافة الذي نعيش فيه » لشتولبر ،
 « جغرافية الحدود » لفأوست ، « جنيف » لبورند شو ، خمسة كتب
 مترجمة . وظهر في مصر ايضاً سبعة كتب في التربية وهي كلها اما
 مترجمة مثل « في التربية » لبورند رسل او ذات مواضيع غريبة عنا

كانتربية الانجليزية لمحمد عطية الابراشي . وما يصدق على هذه بصدق
بالاجمال على سائر الكتب التي ظهرت في مصر وعلى ما صدر في
غيرها من البلدان العربية .

وخلاصة القول - ما لم تتحرر ارواحنا من ذل العبوديات
النفسية كال تقليد مثلاً ، لا يتيسر لنا الاستقلال الروحي ولن نهد
امامنا الطريق الى الاستقلال الفكري ، وبكلمة أخرى الى أسس
الاستقلال السياسي . وما دام ادبنا الحديث منقولاً وافكارنا
افكار غيرنا ، بقيت أسس الاستقلال السياسي الفكرية متزعزعة .

لقد حان الوقت لتعريب ادبنا ولانشاء رواية عربية حديثة منبعثة
من الحياة العربية . ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانودي
برجراك والبؤساء وغيرها من روايات الاجانب . ومن الصعب ان
نرتجي من نشء لم يتزعزع الا على مثل هذه الروايات ان يشب على
عقيدة عربية راسخة . ومن واجبن ان نهيء للنشء الجديد رواية
من طينة عربية نظير الروايات التاريخية التي سالت من قلم الطبيب
الذكر جرجي زيدان ودمه وروحه . وباليث كتابنا المنصرفين
وراء الترجمة والنقل يعنون بالرواية العربية ولا سيما تلك التي تنسج
لحتها من حياة العرب في هذا العصر . وتاريخ العرب قديمه وحديثه
مفعم بالوحي والالهام ينتظر مصطفى من ارباب الاقلام ليحطم
الاصنام ، ويحرر أدب قومه من ربة الاجانب وتفكير الاعجام .
ولنا في التاريخ العربي خير مثال . فقد مر العرب في دور كانوا
فيه نقلة و مترجين . امتد هذا الدور من اواسط القرن الثامن
للميلاد حتى أواخر القرن التاسع . ونقل العرب جل تراث اليونان

الفلسفي والطبي والعلمي والرياضي، وترجموا للهند وفارس، واخذوا عن اليهود والسريان والاقباط . غير انهم لم يقنعوا بحياة الترجمة والنقل . وسرعان ما استحال هذا العصر الى عصر ازدهار وابتكار وابداع . فسار العرب في طليعة الامم واصبحت لغتهم لغة العلم والفلسفة والتجارة من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر . ولو قنع العرب آنشد بالترجمة واقتصروا عليها لبقوا تحت وصاية اليونان الفكرية وانتداهم الثقافي حتى هذا اليوم . وعندى ان العرب اليوم ان بقوا قانعين بالترجمة والنقل بقوا تحت نير الاجانب الفكري وبقوا تحت نيرهم السياسي عرضة للاستعمار والاستعباد. ولن يكون للجلاء معنى او حقيقة اذا أقفلت جنود الحرب الى حيث القت ... وبقيت جيوش الفكر في البلاد . والاستعمار الفكري ولانتداب الفكري والوصاية الفكرية أشد نيراً وأنكى سماً من الاستعمارات والانتدابات والوصايات السياسية . فهذه تستعبد الاجسام وتلك تستعبد النفوس وتزهق الارواح .

وقد تولدت من فقدان الرقبة الفكرية لدى الشباب العربي مشكلة اخرى تنجلي في سهولة انحرافه عن المبدأ لاسيما عند اصطدامه بالعوامل المادية . فكم من نفس اذكاها زناد المبادئ فاضرم فيها نيران الحماسة والتضحية فما لبثت هذه ان خمدت عندما طمت عليها مياه المصلحة الشخصية وعصفت بها الرياح الصفراء . وقد كان للثقافة اللاتينية في بلادنا اثر سيء من هذا القبيل . فقد افسدت تلك الثقافة اينما حلت جواز البلاد الاخلاقي والسياسي، فنغلغلت فيه الرشوة وساد فيه الجشع، وفقدت منه الامانة . ولن يكون للجلاء العسكري

معنى او حقيقة حتى يتم الجلاء الثقافي وتجلي القلوب من صدا الفساد السياسي والتذبذب الاخلاقي .

وقد أدى فقدان القبلة الفكرية لدى العرب وتضارب الفكر المزيفة بهم مع ما طبعوا عليه من الفردية والمغالاة فيها الى آفة اخرى لا بد ان تزول قبل ان تصل العروبة الى هدفها وتستعيد مركزها في التاريخ ، تلك الآفة هي العمل على حدة افراداً . وقد تجلى هذه الفردية بأوضح مظاهرها وابسطها في اعمال العرب التجارية . فهم يستثمرون اموالهم افراداً - تقوم مصارفهم على الافراد لا على الشركات، وتجاريتهم على حوانيت صغيرة ودكاكين اصغر ، فتضيع جهودهم من هذا التفتت وتضمحل . ولم تجتمع كلمة العرب ولم يلتف شملهم حول راية واحدة إلا عندما جاءهم النبي الامين ورفع امامهم فكرة اعظم منهم ودرهمهم على العمل والتعاون في سبيلها وحب اليهم ان يضيعوا انفسهم فيها فوجدوها ، فاستحال ضعفهم الى قوة ، وتفرقهم الى تضامن وقبائلهم الى امة ، ولجاتهم الى لغة . واليوم يعيش العرب في عصر علماني تجتاح بلادهم عوامل خارجية جبارة دفعت بها الى معترك القوميات المتطاحنة . وهم يجدون انفسهم لا محور فكريا لهم تدور رحاهم عليه فيوجد في كيانهم جاذبية تحول دون تساقط اجزائه واضمحلالها . ولا يسعهم ان ينظروا الى الوراء لئلا يصبحوا مثل امرأة لوط عمود ملح على قارعة الطريق . عليهم ان يتابعوا المسير وان يستوحوا من تاريخهم ومن مقتضيات مستقبلهم محوراً فكرياً تدور رحاهم حوله فيبقى كيانهم متماسك الاجزاء . وان ينصبوا من كنه تراثهم قبلة روحية

يولون وجههم نحوها .

وانا انصب امام شباب العرب ومحط آمالهم قبلة فكرية روحية هي العروبة بأوسع معانيها . عروبة تمتاز بسعة الصدر ورحابة وكبر النفس وكرمها . وسعت تراث الهند وفارس واليونان واخترت منه ما اختارت (وفي الاختيار دلالة على الحياة والحركة) وحافظت على روح البحث والتنقيب وابقته حياً ، وحملت لواء العلم الصرف لاجل العلم ، وقويت على الابتكار والابداع والانتقان ، وافسحت المجال لمساهمة جميع ابناءها في رفع صرح مجدها على اختلاف مللهم ونحلهم ، وسعت وراء الجوهر دون العرض ، وعلمت وعملت بتفوق الروح على القوة ، وارتفعت فوق الافراد والعائلات والاقطار ، وهيات لهم الفرص ليدخلوا خدمتها راضين ، وحييت اليهم ان يضعوا انفسهم فيها فوجدوها وكانوا هدى للعالمين .

هذه هي قبلتنا الفكرية الروحية . ومتى ولى العرب وجوههم نحوها تتوحد قوى انفسهم وتستحيل حياتهم من وجود معدوم الغاية والانسجام ، الى حياة ذات غاية ووثام .

عندئذ - ينتصب الشباب العربي ويتقدم لمواجهة موعده مع المستقبل - مرفوع الرأس ، رابط الجأش ، راسخ الايمان ، قوي الساعد ثابت القدم . لا تستهويه الوظيفة ولا ينحرف عن مبادئه طمعاً في مغائرها . له الرأي ، وله الارادة ، ولديه الاقدام والعزيمة . يتصف بالشرف والصدق والجرأة ، اذا اعترض طريقه دجال لا يحجم عن ردّ تدجيله . وهو فوق كل شبهة أو ريبة ، في السرا والعلانية - هو عربي .